عمر الخيام — ٣

بحث وتحليل

وهناك ناحية أخرى من نواحيه الفلسفية ، تلك هى بحثه فى الحياة الأخرى ونظره إليها ومحاولته الوقوف على القوة المسيرة للكائنات . وقبل أن أدخل فى هذا البحث أقول إن الملاحظة والتجربة دلتا على أن العقل البشرى لا يمكنه مهما تسما أن يصل الى كنه الأشياء .

يعترف الخيام بوجود الاله ، وأنه خالق كل شىء ، ويعتقد بأن الانسان مسير فى هذه الحياة لا مخير وأن القضاء والقدر بيدى الله . وألا حيلة لامرء فى أمر من الأمور . وهذا حسن فى ذاته لو أن منطق الخيام سار على هذه الوتيرة . غير أنه مع الأسف الشديد لم يقتنع بحديث الحياة الأخرى وما يتبعها من البعث والنشور والحساب والجنة والنار ، بل يقول لا حياة بعد الدنيا وأن الانسان لا يرجع بعد الموت ، بل يحول ترابا تتغذى به النباتات . ويدلنا على ذلك قوله :

واحتفن فى كرة العمر الرقيف كل غصن أهيف القد رهيف
فلعا تحضنك الأم العطوف فى حشاها حين تلقى الأجلا
ليس للثاوى بملحود متاع

والأم العطوف هنا هى الأرض . وقوله :

تبا لى إن عدا أهل الجنان زمرة النساك أعداء الدنان
والأغانى أى خمر تبتغان بعد ذا فى جنة الخلد وما
ضمنت ، لاحبذا فيها المقام

عالمى الا أرى ممن مرا منهج الموت المخوف المنكرا
عائدا يروى لنا ما أبصرا فى طريق مظلم لن يعلما
ما حواه غير وراد الحمام

فهو يقول إن الواجب على الانسان أن يجتنى اللذات ما يمكنه فلعا يموت إذ لا رجعة بعد الموت ، ويخبر صاحبه بأن الجنة ليست بمضمونة حتى لا يضيع لذة الدنيا الحقيقية بلذة الجنة الخيالية . وقد حاله أن لم ير واحدا ممن ماتوا يرجع ليروى للناس ما رآه فى طريق الموت المظلم . وهذا تفكير خاطىء . بطبيعة الحال . وفى اعتقادى أن الخيام لم يرتض الفلسفة القديمة

فقد قرأها وأحب أن ينسج على منوالها حتى يصل إلى الحقيقة ولكنه أخطأ التوفيق إذ كان من الواجب عليه أن يعتبف إن دراسته الفلسفية دراسة الأديان وماقيها من البراهين الناطقة على وجود الحياة الأخرى .

ويظهر أن سيره كان قليلا فأعلنها فكر ولم يقتنع بطائل أخذ يرأيه وجاهر به بين الناس فخرج على مبتغاه وكره البحث في العلوم الالهية فانصرف عنها وحقرها ونقد بأعمال الصوفيين والباحثين في الروحانيات واعتكف على شرب الخمر والتغني بمحاسنها واقتطع لدراسة العلوم الأخرى التي لاتقبل جدلا ولا إنكارا وهاهو قد طلق بفيثاغورث وأصحابه . ثم هاهي بعض رباعياته تؤيدنا في هذا الموقف فقد قال :

كم شيوخ وقسوس أكبوا في انتقاد الكون حتى ترثروا
بالغوا في الحدس حتى هذروا ثم سل الموت منهم مقولا
وغدت أقوالهم سقط متاع

وقال: دع رجال العلم في شغب الجدال ينفقون العمر في قيل وقال
كل شيء في الورى إنك محال غير موت بات يطوي أملا
ليس يذكر بعد مايخبو شعاع

وقال: طالما خضنا غمار الفلسفة وسمعنا من صواب وسفه
وخبطنا في مضل معسفة ثم صرنا حيث كنا أولا
لم نسر حول الهدى قيد ذراع

وقد كانت هذه العقيدة الراسخة في نفس الخيام شؤما عليه في حياته وبعد مماته فأنه على الرغم من إكرام السلطان له وإعانته إياه لم يقتر من طوائف زمانه برضى فتألبوا عليه ورموه بالزندقة ولم يكترثوا بآرائه وهو يتهم . أما بعد موته فقد أبوا عليه تشييد مدفن يلائمه لانهامه بالخروج على الدين وأحكامه . ولولا أن قيض الله له من محبي البحث والاستقصاء من رفع مكانته ونشر رباعياته في العالم المتمدين لظل مجهولا أبد الدهر .

والذي رفع ذكرى الخيام وجعلها تسير مع كل زمان ومكان هو أنك إذا قرأت شعره أحسست بأثر عميق في نفسك لاتدري له مصدرا ونسبت مايقوله في الخمر ومدحها

وتشعر وأنت تقرأ كلامه بأن الرجل أمامك وجها لوجه يحادثك وأنت منصت له وبأنك بالاهبة على مايقوله وأنت عاجز عن نقضها أو تكذيبها ، تأمل في جاذبية كلامه حين يقول :

أنظر الورد وأبهاه نما حيث روى الأرض مدفون دما
فهناك الزهر يطفى عندما وخدود الورد تدمي خجلا
وعروش الروض حمراء القناع

وأرى ريحانة الفرج المطير أصلها من فرع مفتان سحور
غادة معشوقة الدل تنور فرعها القبنات لما ذبلا
في ثراه شب ريحانا وضاع
فاذا واقيت عشيا زخرة شفة من جدول أو فوهة
لانت فيه عسوها متانا فعساه قد نما بعد البلا
من شفاه مستلذات السباع

وقد كان الخيام حضريا في شعره رقيقا في تعبيراته حسنا في تشبيهاته وهذا ناتج عن تأثير البيئة فيه فان الفرس أمة ذات حضارة وتاريخ مجيد . بها الرياض والبساتين والقصور العالية وبها شعب عرف النظام من قديم الزمن . وكان الخيام أيضا مولعا بالمظاهر الطبيعية شغوفا بالتأمل فيها والتحدث عنها فأنت تجده في كل استشهاداته يذكرك الأشياء الطبيعية التي يعدها الناس الآن من مميزات الشعر الحديث كالرياض وما فيها من الثمار والأزهار، والروابي وما هي عليه من الروعة والجلال

ومن الرباعية الآتية يتحقق ما قلناه وهي :

لفتنا إن غاض النهر يغرق وخيا ورد الربيع المتعرق
وانطوى سفر الشباب العبق وهزار ناح حينا وهدر
خبروا أني أتى أو أين طار

بقي علي أخيرا أن أشير إلى آثاره في علم الفلك فقد نبغ فيه نبوغا عظيما حتى أن الملك شاه فوض إليه الأمر في تعديل التقويم السنوي فقام بمهمته خير قيام . وقد ألف أيضا في علم النجوم بضعة جداول فلكية . كما ألف أيضا في العلوم الرياضية .

غفر الله له الذنوب إن كان مذنبا . وعوضه عن آثامه خيرا إن كان محسنا . ونفع الناس بآثاره العلمية المفيدة .

محمد رشاد عبد الفتاح
مدرس بمدرسة بيت الحمر الابتدائية للبنين